ومع دقات جرس الهاتف، كانت دقات قلوبنا! وردّت علينا وحيدته، بنت الرابعة عشرة، وبرزانة موروثة عن والدها، قالت لنا:

– كل ما أعرف أن والدي اصيب بنوبة، فنقلته والدتي إلى المستشفى.

ولم نكن نرغب بالمزيد، لا هي ولا نحن. أردنا التعلّق بالأمل. ولكن القلق المستبد لم يرحم... ثم جاء صوت النعي. لقد توقف القلب المتعب عن الخفقان.

هكذا إذن! انتهى كل شيء؟

وماذا يمكن للمرء أن يقول في مثل هذه اللحظة؟ أيقول تبّا لهذه الحياة، أم تبّا للموت؟ ولكنها سنّة الكون وقانون الحياة المحكومة بالموت!

ثم يكتشف المرء أنه ليس كل من عاش عاش، وليس كل من مات مات. وتتداعى الافكار في الرأس ليعتبر من يستطيع الاعتبار، وما أندر من يعتبرون رغم تكرار المأساة الانسانية كل يوم بل كل لحظة. وتنتهي إلى قرار، لا يخلو من العزاء، بأن من كان مثل فايز صائغ لا يموت. وكيف يموت من كانت آثاره ونضالاته وسيرة حياته تملأ الدنيا وتشغل الناس. لا يموت إلا من عاش لذاته، ولكن من عاش لغيره، للناس، للمثل العليا، لقيم الخير والحق، فإنه يرحل، يغيب، ولكنه لا يموت.

قضيته كانت قنديل مشواره في هذه الدنيا، يستعين به بحثا عن طريق، عن عقيدة، عن حزب، عن قائد، عن فكرة، عن أي خشبة خلاص تضع حداً لمأساة شعبه... مأساة عمره.

خيباته في البحث لم تثنه رغم الألم والمرارة. وما أكثر ما تألم فايز وما أُصيب بالمرارة وحبات الأمل تتفرط بين يديه واحدة وراء الأخرى. ترك الوظيفة والمنصب الرسمي مؤثراً البحث والدرس ومتابعة العدو أربعة وعشرين ساعة على مدار السنة. لا أذكر بالضبط عدد ما في مكتبته «الفلسطينية – الاسرائيلية» من كتب ونشرات ووثائق وقصاصات صحف، ولكن ما من شك أنها توازي وربما تفوق ما لدى بعض المؤسسات والمراكز المختصة. وكنت أعرف أنه لا يوجد صحيفة أو نشرة اسرائيلية أو صهيونية إلا وكان مشتركا فيها. كان يقرأ ويدوّن الملاحظات ثم يسجلها بطاقات صغيرة ويؤرشفها. لديه من هذه البطاقات ما لا يمكن عده، وإن كان يمكن قياسه بعشرات الأمتار.

تسأله عن أي قرار، أو عن أي تصريح، أو أي وثيقة، فيجيبك على الفور بكل التفاصيل، بما في ذلك أحيانا، التاريخ ورقم الصفحة أو الوثيقة التي احتواها ذلك القرار أو ذلك التصريح. كان «كومبيوتر ادمياً»، ومع المعلومة التي يعطيك اياها هنالك تلك الشحنة من العاطفة الوطنية الصميمة.

كان عربيا حتى العظم؛ فلسطينيا حتى النخاع. ما استنفرته جهة عربية أو فلسطينية إلا واستجاب بحماس وأعطى ما عنده. وما أكثر ما كان هو الذي يبادر ليستنفر الهمم رغم مرارة التجربة والام الخيبة.